SANAD

الاستعلاءُ بالإيمان

في الميزان

براءة الإسلام
ممَّا يدَّعيه المتشدِّدون
من التعالي على المسلمين
وغيرهم باسم الدين

مُبادَرات طَابَة
TABAH INITIATIVES
www.tabahinitiatives.org

مطوية رقم (١٢) مسلسل رقم (١١٧) | ٢٠١٨

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وإمام المتواضعين، وعلى آله وصحبه والتابعين.

مكارم الأخلاق

جاء هذا الدين لهداية الخلق أجمعين، يدعوهم إلى مكارم الأخلاق وصلة الأرحام، وترك الشِّقاق والخصام، والتواضع ولين الجانب، وغيرها من الأخلاق والقِيم الفاضلة حتى قال عليه الصلاة والسلام: «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق»(١)، ونهى عن سيِّئها فقضى على العصبيات والطبقيات، والتكبر والاستعلاء في الأرض... فالعَجَب ممن يؤسِّس لمفاهيم مخالفةٍ لما جاء به سيد المرسلين، مُدّعيًا أن هذا من الإيمان !! ومن هذه المفاهيم الصارخة بالمخالفة (الاستعلاء بالإيمان).

متى كان التأصيل لمفهوم الاستعلاء بالإيمان ؟؟

من المفاهيم المغلوطة والتحريفات القبيحة لدى الجماعات المتشدِّدة مفهوم «الاستعلاء بالإيمان».

وقد أصَّل له الأديب سيد قطب في كتابه "في ظلال القرآن" وأفرده في مقال له في كتابه "معالم في الطريق" بعنوان: «استعلاء الإيمان»!!! وقد أخذت الجماعات المتشددة والمكفِّرة هذا المعنى واصطبغوا به يتخذون من الاستعلاء طريقًا إلى الترفع والتعالي حتى على آبائهم وأمهاتهم ومُعلِّميهم ومشايخهم، لا يراعون لأحدٍ حقًّا في ذلك، بل قد نسمع أن بعضهم وصل إلى قتل أمِّه وهي تُصلِّي بعد أن كفَّرها.

ولم نجد «الاستعلاء بالإيمان» بذلك المفهوم الذي أسَّس له المخالف لا في العهد النبوي ولا فيما بعده من عصر الصحابة ولا التابعين في القرون الثلاثة الأولى، ولا حتى فيما بعد ذلك من القرون ، لا لفظًا ولا معنى!!! بل جاء الشرع الحنيف بخلاف ذلك.

---

(١) أخرجه أحمد (٨٩٥٢)، والبخاريُّ في "الأدب المفرد" (٢٧٣)، والحاكم (٢/ ٦١٣)، وغيرهم من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

كيف فهم المتطرفون معنى "الاستعلاء بالإيمان" ؟؟

أن ينظر المؤمن إلى كل مخالفٍ له نظرة دونية يحتقر فيها شأنه وحاله؛ إذ غيره جاهلي ضال !!!

يقول في ظلال القرآن (١/ ١٤٥): «وأعطاهم الاستعلاء الذي ينظرون به إلى قطعان البشرية الضالة في أرجاء الجاهلية المترامية الأطراف في الأرض فيحسون أن الله آتاهم ما لم يؤت أحدا من العالمين».

فالأستاذ سيد قطب يُنَظِر ويؤصِل لمفهوم خطير يمكن أن نسمّيه بـ«التكبُّر الإسلامي».

؟؟ ولا ندري كيف يستقيم ذلك المعنى وما يخلقه أو يخلّقه من شعور في قلب وضمير الفرد، مع قوله تعالى: {وَقَالُوا الْحَمْدُ لله الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا الله} [الأعراف: ٤٣]، وقوله تعالى: {وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ} [البقرة: ١٩٨].

ولا تستقيم رؤية الإنعام من الله، والشعور بفضله، مع احتقار شأن الآخر والتعالي عليه بأي شكل من الأشكال أو تحت أيّ مسمى؛ إذ مَن عَلِم مِن نفسه القصور والنقص الذاتي، وأن ما فيه محض فضل من ربِّه، لا يتعالى على من لم يُؤتَ ما أوتيه.

فكر ضال ... وردود أفعال

لا يقال على ذلك المفهوم العجيب الغريب الذي لا يمت للإسلام بصلة، إلا أنه ضلال فكري، وأولى أن ينسب صاحبه إلى الجاهلية من أولئك الذين يدعو للتعالي عليهم !!!

فإننا نجد هذه الفكرة مشحونة بالمعاني والأخلاق المخالفة للشرع ونهج النبوة؛ من التعالي على الخلق والتحقير للآخرين، ومملوءة بالعداء والكره، والرفض للآخر، وهي إن دلت فإنها تدل على نفوس مريضة تُعاني من الاضطهاد والحرمان، نتج عنهما ما نراه من ردود الأفعال من الدعوة للاستعلاء وغيره.

فقد كان للمعاناة التي عاشها هؤلاء أثر كبير في نفوسهم وأفكارهم وتوجهاتهم العدائية تجاه الحكومات والمجتمعات بل وكل من يخالفهم، فأخذوا يحثون في النصوص ويجترؤون منها ما يوافق مرادهم دون مراعاة للسياق والأصول.

ما هي أدلة المخالف لهذا المفهوم المحرَّف ؟؟

استشهد سيد قطب بآية من كتاب الله، وبموقفين من سيرة السلف الصالح.

* الآية هي قوله تعالى: {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [آل عمران: ١٣٩].

* ومن مواقف السلف ذكر موقفين لاثنين من الصحابة رضي الله عنهم:

١- الأول موقف الصحابي المغيرة بن شعبة مع رستم قائد الفرس.

٢- والثاني موقف الصحابي ربعي بن عامر مع رستم أيضًا قبل موقعة القادسية.

والقصتان تشيران إلى الغرور بالدنيا ومظاهرها، ومقابلة صاحبَي النبي ﷺ لهذا بالاعتزاز بالدين وعدم الالتفات إلى هذه المظاهر، والدعوة إلى الخروج من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد جل شأنه.

وافتتح كلامه مستدلًّا على مفهومه المخالف بهذه الآية: «أول ما يتبادر إلى الذهن من هذا التوجيه أنه ينصب على حالة الجهاد الممثلة في القتال» ثم يستدرك قائلا: « ولكن حقيقة هذا التوجيه ومداه أكبر وأبعد من هذه الحالة المفردة... بكل ملابساتها الكثيرة ».

ويعمم هذه الحالة التي يُنظِّر لها فيقول: «إنه يمثِّل الحالة الدائمة التي ينبغي أن يكون عليها شعور المؤمن وتصوره وتقديره للأشياء والأحداث والقيم والأشخاص سواء . إنه يمثل حالة الاستعلاء التي يجب أن تستقر عليها نفس المؤمن إزاء كل شيء ، وكل وضع ، وكل قيمة ، وكل أحد ، الاستعلاء بالإيمان وقيمه على جميع القيم المنبثقة من أصل غير أصل الإيمان».

ولا نعلم من أين جاء الأستاذ الأديب بأن معنى قوله: {وأنتم الأعلون}: استعلوا على الخَلْق بالإيمان؟؟!!

كيف فهم علماء الأئمة معنى الآية؟؟

أولا: معنى الاستعلاء في القرآن:

- الأول:الظهور والغلبة:

ومنه قوله تعالى : {وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى} [طه: ٦٤] أي من غلب. "تاج العروس" للزبيدي (٧/ ٢٧).

وقوله: {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [آل عمران: ١٣٩]، و{فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ} [محمد: ٣٥]

يعني وأنتم الغالبون والمنتصرون، والمعنى ظاهر من سياق الآيات.

- الثاني التكبر والترفع:

وهو مختص بالحق كما في قولك: «سبحانه وتعالى» أي تكبر وترفع عن كل ما لا يليق بذاته العلية.

وهو بهذا المعنى في حق الخلق خلقٌ ذميمٌ منهي عنه في الشرع، وقد جاء في الحديث القدسي: «الكِبْرِياءُ رِدائِي والعَظَمَةُ إِزارِي فَمَنْ نازَعَنِي فِي واحِدٍ مِنْهما أَدْخَلْتُهُ جَهَنَّمَ»(٢) وفي لفظ: «قَصَمْتُهُ».

وقال صلى الله عليه وسلم: «لا يدخل الجنة مَن كان في قلبه مثقال ذرَّةٍ من كِبر»(٣)

ثانيًا: رد أهل التفسير والعلم على فساد استدلال المخالف

ونقطة الخلاف في هذه المسألة تحريف معنى قوله تعالى: {وأنتم الأعلون}.

وقد وردت في آيتين في كتاب الله في [سورة آل عمران: ١٣٩]، و [سورة محمد: ٣٥].

ومعنى {وأنتم الأعلون} كما قال المفسّرون: الغالبون، المنصورون، الظاهرون.

قال شيخ المفسرين الطبري في تفسيره (٦/ ٧٦): {ولا تهنوا ولا تحزنوا}، يا أصحاب محمد، يعني: ولا تضعفوا بالذي نالكم من عدوكم بأُحد -من القتل والقروح - عن جهاد عدوكم وحربهم "ولا تحزنوا"، ولا تأسوْا فتجزعوا على ما أصابكم من المصيبة يومئذ، فإنكم "أنتم الأعلون"،

---

(٢) أخرجه أحمد (٧٣٨٢)، وأبو داود (٤٠٩٠)، وابن ماجه (٤١٧٤)، وغيرهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

(٣) أخرجه مسلم (٩١) [كتاب الإيمان]، وغيره من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا.

يعني: الظاهرُون عليهم، ولكم العُقبَى في الظفر والنُّصرة عليهم "إن كنتم مؤمنين".

وقد وافق الإمام الطبري في هذا المعنى عدد من الأئمة منهم:

١- الضَّحَّاك بن مزاحم (ت: ١٠٢) تفسير ابن أبي حاتم (٣/ ٧٧١).

٢- الإمام مجاهد بن جبر (ت: ١٠٣) تفسير الطبري (٢١/ ٢٢٨).

٣- مقاتل بن سليمان (ت: ١٥٠) في تفسيره (٤/ ٥٣).

٤- أبو إسحاق الثعلبي (ت: ٤٢٧) تفسير الكشف والبيان (٣/ ١٧٢).

٥- ناصر الدين البيضاوي (ت: ٦٨٥) أنوار التنزيل (٥/ ١٢٥).

٦- الإمام النسفي (ت: ٧١٠) مدارك التنزيل وحقائق التأويل (١/ ٢٩٥).

٧- الإمام أبو حيان الأندلسي (ت: ٧٤٥) البحر المحيط (٣/ ٣٥٣).

٨- الإمام ابن كثير (ت: ٧٧٤)

وقد ذكر الإمام الرازي وجوهًا في تفسيرها، وقال عن هذا المعنى المذكور: «وهو شديد المناسبة لما قبلة». تفسير الرازي (٩/ ١٢).

هذا كلام المفسِّرين؛ ولم يأتِ في تفسير الآية الإشارة لما ذكره سيد قطب من قريب أو بعيد !!!

لنرى مدى انحرف المخالف بهذا المعنى ولنعرف خطأ استدلاله بالآية.

وسيد قطب كان أديبًا وليس عالمًا من أهل الأصول والاستنباط؛ فشطَّ به قلمه إلى هذا المعنى المحرَّف، وأثَّر في أتباعه وأنتج غرورًا ومصادرة على غيرهم.

فانحرف بالمعنى الأصيل؛ من أن المسلم أو المؤمن يجب أن لا يصاب بالضعف والتخاذل، وهو المقصود بقولهم: إن الحق يعلوا ولا يعلى عليه.

إلى أن المسلم أو المؤمن يجب أن يتعالى على الخلق لأنه مؤمن، وأن غير المؤمن جاهل ضال يجب أن يتعالى المؤمن عليه في حال قوته وفي حال ضعفه!!!

بين العزة والكبر

في الموقفين الذين استدل بهما المخالف كان الصحابيان الجليلان في مقابل قائد جيش العدو في حاشيته وأبهته، محاولًا بكبره وغطرسته أن ينال من عِزَّة المسلم وأنفته، فكانا رضي الله عنهما في موقف إظهار عزة الإسلام والعبودية لله وطلب الآخرة في مقابل الاغترار بأبهة الكفر وطلب الدنيا.

وهنا وقفة.....

يقع كثيرًا الخلط بين مفهومي العزَّة والكرامة من جهةٍ وهما واجبتان في حقِّ المسلم، وبين التكبُّر والترفُّع على الآخرين من جهة أخرى، اللذَّين نهى الله ورسوله عنهما حتى مع غير المسلم.

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣]

وتأمل قوله تعالى: ﴿لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأرضِ﴾ فلم يستثن المسلمين بجواز إرادة العلو في الأرض.

ولكن ما يثير العجب أننا هنا لسنا في لبس بين العزة والتكبر، بل الدعوة هنا صريحة إلى التعالي والتكبر واحتقار الآخرين، كما يظهر جليًّا في معاملات المتبنّين لهذا الفكر.

ولا يقال أن التكبر على الكفار والفسَّاق جائز، لأنَّ هذا حتى عند من أجازه له ضوابط وحالات مُعيَّنة، يقول العلامة القرافي في كتاب الفروق (٤/ ٢٤٥): «أصل الكبر التحريم، وقد يعرض له ما ينقله عن التحريم إما إلى الوجوب كما في الكبر على الكفار في الحروب وغيرها...».

ولم يرخص الحق سبحانه لأحد من خلقه في الكبر، وإنما هي دعاية إبليس ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ [الأعراف: ١٢] يدلس بها على بني آدم، ليوقعهم في ذنبه الذي تسبب في طرده ولعنه.

«معنى قوله عز وجل «أعزة على الكافرين

وقد يستشهد البعض بقوله تعالى: ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ﴾ [المائدة: ٥٤].

وهذه الآية وغيرها من الآيات التي جاء فيها معنى الشدة على الكفار مرتبطة بحال القتال والحرب، وليست الأصل في المعاملة الحسنة من المسلمين لغيرهم مما أثبتته وقررته سيرة وحياة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام.

ومعنى الآية: {أذلة} عاطفين {على المؤمنين أعزة} أشداء {على الكافرين يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ} و الواو للحال، على أنهم يجاهدون وحالهم في المجاهدة خلاف حال المنافقين، فإنهم كانوا موالين لليهود فإذا خرجوا في جيش المؤمنين خافوا أولياءهم اليهود، فلا يعملون شيئاً مما يعلمون أنه يلحقهم فيه لوم من جهتهم (٤).

فهم وتطبيق الصحابة لعزة الإسلام

هناك كثير من المواقف للصحابة الكرام تبيّن المعنى المحمود والمنشود لعزة المسلم.

فهذا سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، يوضّح التطبيق العملي للعزة وأنها ليست التعالي والترفُّع على أهل الإسلام وغيرهم كما نرى من المتشددين والتكفيريين...

لما قدم سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه الشام وأتته الجنود وعليه إزار وخفّان وعمامة وأخذ برأس بعيره يخوض الماء , فقالوا له: يا أمير المؤمنين , تلقاك الجنود وبطارقة الشام وأنت على هذا الحال , فقال عمر: «إنا قوم أعزنا الله بالإسلام , فلن نلتمس العِزَّ بغيره». وهو موقف يبرز معنى العزة بهذا الدين وعدم الاغترار بالشيطان وغوايته وتزيينه للضلال والكفر.

ولا يمكنك أن تستشعر في هذا الموقف أي معنى للاستعلاء بالمفهوم الذي يقدمه المخالف ويروّج له خريجو هذا الفكر المتشدد ودُعاته.

(٤) تفسير الكشاف (١/ ٦٤٣)، و تفسير الجلالين (١/ ١٤٧).

لا يوجد استعلاء في حياة خاتم الأنبياء ﷺ

ثم أين هذا الاستعلاء بالإيمان -على حد تعبيرهم- في تعامل النبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم مع كفار قريش طوال مدة دعوته الشريفة في مكة.

وإن أورد البعض على ذلك كون النبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم كان مستضعفًا في مكة؛

نقول: أولًا: هذا لا يؤثِّر فرقًا عند المخالف فإنه يقول في "معالم في الطريق": «الاستعلاء... مع ضعف القوة، وقلة العدد، وفقر المال، كالاستعلاء مع القوة والكثرة والغنى على السواء».

ثانيًا: لا يرد ذلك هنا؛ لأن النبي صلى الله عليه وآله يوم فتح مكة كان في حال حرب مع الكفار الذين آذوه وأخرجوه وعذَّبوا أصحابه وقتلوا عمَّه وقد دخلها منتصرًا ومع هذا أبدى من الرحمة ولين الجانب لكفار قريش ما لا يدانيه خُلُق ورحمة...

فقد أحنى رأسه حتى إن لحيته الشريفة لتمس رحل ناقته فدخلها ساجدًا متواضعًا لربِّه عزَّ وجلَّ.

وتأمَّل قوله في تعامله مع الكفار حتى في حالة الحرب مربيًا أمته صلى الله عليه وآله وسلم في فتح مكة:

* لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ... اذهبوا فأنتم الطلقاء.

* ويقول لعثمان بن طلحة بعد أن رد إليه مفتاح الكعبة: «هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم بر ووفاء».

* ولما قال سعد بن عبادة: اليوم يوم الملحمة، قال: «كذب سعد، اليوم يوم المرحمة».

قولًا ليِّنًا

بل إنه سبحانه أمر الأنبياء عليهم السلام بلين القول، فكان من أمره للكليم وأخيه هارون عليهما السلام، في مواجهة فرعون أن قال: {اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (٤٤) قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (٤٥) قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} [طه: ٤٣ - ٤٦]

وهل قوله تعالى: {إنني معكما أسمع وأرى} ، إلا كقوله تعالى {ولا تهنوا ولا تحزنوا وانتم الأعلون}، فهما بمعنى التثبيت والتأييد والنصرة، وليس كما زعم المخالف!!

المنهج القرآني في التعامل مع المخالف

ليس في الشرع الحنيف ولا الهدي النبوي الشريف أمر أو توجيه بالمعنى الذي فهموه، فليس هناك أمر بالاستعلاء لا على أفراد ولا على أفكار ولا على قوانين.

وإنما جاء النبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم باتباع الحق ونصرته، وعدم الاغترار بالباطل، وكان من هديه في دعوته للخلق ما أنزل عليه ربه في القرآن الكريم:

- : {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} [النحل: ١٢٥]

- {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [العنكبوت: ٤٦]

- {وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ} [الإسراء: ٥٣]

وكان من هدي الله لنبيه عند معاندة أعدائه للحق واغترارهم بباطلهم:

- {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ} [الروم: ٦٠]

- { فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ} [الأحقاف: ٣٥]

- {فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا} [المعارج: ٥].

وأدَّب الله أمته فقال عز وجل:

- { وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا } [الفرقان: ٦٣].

- { تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} [القصص: ٨٣].

- {وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} [لقمان: ١٨]. هذا أمره سبحانه لنبيه وأمته في التعامل مع المخالفين المنكرين المعادين للحق، الداعين والداعمين للباطل.

وكل ألفاظ (العلو) في الآيات إنما تعني؛ الصبر والتمسك بالحق وعدم الاغترار بإنكار المنكرين وتكذيب المبطلين، مع تعلق القلب بالرب واليقين في نصرته.

فأين فيما سبق قول المخالف « الاستعلاء . . مع ضعف القوة ، وقلة العدد ، وفقر المال ، كالاستعلاء مع القوة والكثرة والغنى على السواء».

الحكمة ضالة المؤمن

وفيما يخص الأفكار والقوانين والأخلاق والعادات، فقد أدَّب الشارع صلَّى الله عليه وآله وسلَّم أمته بما أدَّبه به ربُّه، وهو أن ما وافق الحق مما سبق فإن الشرع يقرُّه ويقبله ويُثنِّيه، ولو صدر من شخص أو مجتمع أو جهة لا يؤبه لها بين الناس، وما لم يوافق الحق فإنه يرده ولا يقبله بأي وجهٍ كان.

وتأمَّل قول النبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم عن حلف شهده في الجاهلية: « لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفًا ما أحب أن لي به حمر النعم ولو أدعى به في الإسلام لأجبت» (٥)

والمقصود أن مكارم الأخلاق موجودة في البشرية، منثورة بين الخلق، وجاء الإسلام مُقرًّا لها، وداعيًا إليها، ومؤكِّدا عليها، فمتى لقيها المسلم عرفها ولم ينكرها، وكان أولى الناس بها.

(٥)سيرة ابن هشام (١/ ١٣٤).

الخلاصة

- الاستعلاء بالإيمان من المفاهيم المغلوطة المُبتدَعة التي تزرع في النفوس التكبُّر واحتقار الآخرين، وقد أسَّس لها سيد قطب في كتبه، وطبَّقها المتشددون والتكفيريون في معاملاتهم مع المسلمين وغيرهم كما هو مشاهَد.

٢- لا يوجد نصٌّ أو دليل على هذا الفهم المغلوط، وإنما هي آراء واستنباطات من أديبٍ لم يكن له حظٌّ وافرٌ من العلم كما هو معلوم، ولم نجد استخداماً لهذا التركيب (الاستعلاء بالإيمان) لفظًا أو معنى في الهدي القرآني ، ولا النبوي، ولا القرون الثلاثة الأولى وما بعدها.

٣- استدل المخالف لفكرته بآيةٍ من كتاب الله، وبموقفين لصحابيين جليلين، أمَّا الآية فقد خالف في المقصود منها المفسِّرين وأهل العلم، ونحى بها منحى مخالفاً لأصول ومقاصد الدين، وأما الموقفان فقد خلط فيهما بين عزة المؤمن، وبين ما يدعو إليه من الاستعلاء والتعالي.

٤- هناك فرق بين العزَّة التي ينبغي أن يكون عليها المؤمن من العبودية لله وطلب الآخرة في مقابل الاغترار بأبهة الكفر وطلب الدنيا، وبين الاستعلاء الذي يدعوا إليه سيد قطب ويمارسه خرِّيجو هذا الفكر في واقعنا اليوم تكبُّرًا واحتقارًا.

٥- لا يوجد استعلاءٌ في حياة النبيِّ صلى الله عليه وسلم لا مع المسلمين ولا غيرهم لا في حالة الحرب ولا غيرها، وإنما هو الحب والرحمة والبر والتواضع.

٦- ليس في الشرع الحنيف ولا الهدي النبوي الشريف أمر أو توجيه بالمعنى الذي فهمه المخالفون، من الاستعلاء على الأفراد أو الأفكار أو القوانين، وإنما جاء النبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم باتباع الحق ونصرته، وعدم الاغترار بالباطل.

دار الفقيه للنشر والتوزيع
DAR AL FAQIH
PUBLICATION & DISTRIBUTION

مؤسسة طابة
Tabah Foundation
www.tabahfoundation.org

www.sanad.network
facebook.com/sanadnetwork
twitter: @sanadnetwork
youtube.com/sanadnetwork
instagram.com/sanadnetwork